

الإنسان واليومي والخصوصية الفلسفية

الباحثة: خديم فاطمة / إشراف د. العربي ميلود

جامعة مستغانم

أصبح الإنسان المعاصر يعيش غربة، وكان هذا نتيجة لما حملته هذا العصر من تطور هائل في مجال التقنية، أو بالأحرى في المجال العلمي عموماً، هذا الذي كان على حساب الإنسان وإنسانيته والذي كان سبباً في قلقه، الأمر الذي دفعه إلى ضرورة العودة إلى الواقع من خلال تساؤل تمثل في الفائدة التي تجعل من التطور في صالح الحياة البشرية وليس كتهديد أو كخطر عليها. ففي الفلسفة وما يتعلق بنسقيتها، بحثها عن الحقيقة أو البحث عن المطلق نجد في اتجاه آخر وخصوصاً مع نيتشه الذي نادى بفكرة تحطيم الأصنام، هيدغر بفهم الوجود، دريدا بتفكيك المسلمات وليوتار بمراجعة الحكايات الكبرى وأن نجعلها محل شك أي التشكيك في صلاحيتها هذه المحطات الفلسفية الكبرى كانت بمثابة نقطة انزياح عن الفلسفة كونها فلسفة متعالية عن الواقع، فهي تهدف إلى رسم خطوط جديدة ومغايرة للبشرية من أجل تذوق معنى الحياة أو لتكتسي الفلسفة بإيقاع الواقع المعيش هذا أن جاز لنا التعبير بلغة الموسيقى، وعلى هذا الأساس سنحاول الربط بين مجالين قد يبدو أنهما مختلفين مبدئياً بين الحياة اليومية والفلسفة أي الدور الذي يلعبه اليومي في تحديد مجال الفكر الفلسفي فلماذا اليومي بالتحديد؟ وما هي دلالاته؟ وكيف يمكن لليومي بتنوعه الشديد أن يكون حاملاً في طياته ما يعرف بالفكر؟

تحيل كلمة اليومي إلى اللفظ "يوم" وقد ترتبط مبدئياً بالتكرار أي الأمر الذي يتم تكراره يصبح ضمن دائرة اليومي، هذا ونجد ما يقابل اليومي في اللغة الأجنبية *quotidien* وفي التمكن في كلمة اليومي وفي تحليل معطياته نجد بأن الحياة اليومية هي مجموعة الأفكار سواء تلك التي تتصف بالإيجاب أو السلب، أفعال، انشغالات، آلام، فرح حزن والعلاقات المختلفة الأمر الذي دفع بالعودة إلى اليومي، وأكثر من ذلك فقد أصبحت ضرورة في بعض المجالات والتخصصات لأن نجاح هذه الأخيرة يشترط أو يقاس بمدى المحاكاة للواقع والقدرة على التعبير من أجل التغيير إن تطلب الأمر ذلك هذا الذي يظهر جلياً في الفن بصفة عامة فغالبا ما نجد الأفكار الفنية مستقاة من رحم الواقع مثال ذلك

تصوير الوقائع في البرامج واللوحات الفنية... إلخ. وكأن هناك دعوة إلى التأمل والتمعن في الأمور التي نعيشها بصفة دائمة. قد ننطلق من التحديد الذي يرجع اليومي إلى كل ما هو عادي وبديهي لكن الأمر ليس كذلك هذا الذي يؤكد بلانشو من خلال كتابه "la parole quotidienne" والذي يقر بصعوبة المسألة، وإذا ما اعتقدنا بأن اليومي قد يتحدد من منطلق حياتنا الخاصة أو بالأحرى القريبة والضيقة التي نحصرها في مجال معين فنحن في هذه الحالة نقحم اليومي على أن يكون ناقصاً ولإتمام هذا النقص يجب دمج تجارب الآخرين ضمن تجاربنا اليومية ولن يحصل هذا إلا من خلال الاحتكاك بمجالات "المعرفة والعلوم والتكنولوجيا"¹ ومواكبة العصر بما فيه. قد يعود بنا اليومي إلى الفكر الأفلاطوني فمن المعلوم أن في فلسفة أفلاطون نجده قد قسم العالم إلى عالم المثل وهو عالم الحق وعالم المحسوسات وهو عالم الدوكسا - الظن - والحياة اليومية هي الواقع الذي أماننا وبالتالي يجب تجنبها وهنا دعى أفلاطون إلى ضرورة الاستعلاء عن ما هو بديهي وساذج أي عن الواقع فالإنسان الذي تصبوا "الفلسفة إلى معرفته هو إنسان خارق للعادة ولليومي"² لذا سوف نترقب بعض المحطات الفلسفية والتي ستجعل من اليومي موضوعاً فلسفياً بامتياز مع كل من فريدريك نيتشه (1844-1900)، آدموند هوسرل (1859-1938) وهيدغر (1889-1976)، كما أن موضوع اليومي كان حاضراً وبقوة في فلسفة المفكر التونسي فتحي التريكي إذ يحدده بقوله هو "كل ما يحيط بي وادركه حالا ومن دون واسطة ليصبح قريباً مني وحاضراً في ذهني حضوراً مستقراً"³ ويضيف قائلاً بأن "اليومي هو كل ما يحدث يوماً بعد يوم ويتجدد"⁴ فالتكرار هو الذي يجعل من الأحداث تنتمي إلى اليومي، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف يمكن للفلسفة باعتبارها شخصية عريقة على حد تعبير جيل دولوز أن تبحث في معاني وحيثيات اليومي دون الوقوع في فقدان قيمها لأن ما يعرف عن الفلسفة وفي طريقة بحثها هو التعالي عن الواقع؟

يذهب التريكي في كتابه 'العقل والحرية' بأن الأنطولوجيا هي شرط أساس العقل، في هذه النقطة يعود بنا هذا القول إلى الأرضية اليونانية بحيث يذهب فيلسوف الوجود برمنيدس إلى أن العقل والوجود هما الشيء نفسه ومن منطلق أن اليومي هو في حركة

فكيف يمكن للأنطولوجيا أن تعمل عملها في ظل هذا التغير؟ هنا نستحضر السوفسطائية بقوة باعتبارها حركة فلسفية مهمة في تاريخ الفكر الفلسفي فالبيديات الأولى لفلسفة التنوع تتجسد لنا من خلال هذه الحركة الفلسفية، إلا أن القراءات الفلسفية كانت جد مجحفة في حق هذه الحركة فالتهمت بتغيير الحقائق والتلاعب بالألفاظ، لكن السوفسطائية أثبتت جدارتها واحقيتها من خلال التأكيد على الواقع المعاش فهي تقر بأنه لا يمكن الحديث عن فلسفة اليومي إلا من خلال العودة إلى الواقع وما يحمله من متغيرات ومتناقضات، وكما يعرف عن السوفس بأنها فلسفة النقد بامتياز والتي جعلت من نسبية المعارف والحقائق شعاراً لها إذ أصبح الإنسان موضوع بحثها، واهتمت بيوميته وبالتالي فالسوفس كانت قريبة من اهتمامات الإنسان وانشغالاته، كما نجد هيدغر يدعو للعودة إلى الفلاسفة قبل السقراطيين، لأنهم حولوا الاهتمام من الوجود إلى الموجود هذا ونجد في كتابه العمدة 'الكينونة والزمان' 'being and time' 1927 يستهله بـ "إن السؤال المذكور قد ذهب اليوم في النسيان"⁵ والسؤال هنا هو سؤال معنى الكينونة هذه الأخيرة التي كانت من أهم الأسس التي بني عليها الخطاب الفلسفي الغربي والعمل على دحض بعض المغالطات التي بني عليها التفكير الفلسفي وأخص بالذكر فكرة المطابقة أي المطابقة بين التفكير والوجود والتي هي ميتافيزيقا في الأصل وعليه كان لزاماً على الفلاسفة من إعادة القراءة، التأويل، والتفكيك لأن الاختلاف هو أساس الوجود، فهيدغر عمل على رد الاعتبار لهذا الأخير.

وفي موضع آخر نتساءل عن الكيفية التي من خلالها تصبح الحياة اليومية وما تحمله من انشغالات مختلفة حياة تتصف بالعادة؟ هنا تفرض الفينومينولوجيا نفسها لأن مهمتها تكمن في "تأسيس نظرية عامة لليومي لفهم صيرورته"⁶ والتي تنطلق من خلال الكل والقول لبول ريكور (1913-2005)، "معاً نستهدف العالم كطبيعة مشتركة"⁷ فهذه العبارة الريكورية تحيل إلى فكرة العيش معاً، والتي نادى بها هوسرل في كتابه أزمة العلوم الأوروبية بحث شخص لنا هذه الأزمة على أنها أزمة معنى والتي مست العلوم الحديثة بنوعها الطبيعية والانسانية الاجتماعية لذا حاول تجاوز هذه الأزمة من خلال العودة إلى عالم المعيش وهنا وبالتحديد يبدأ عمل الفينومينولوجيا تحت شعار "العودة إلى الأشياء نفسها" هذا ويحدد لنا هوسرل عالم المعيش بقوله هو "الطبيعة الجسمية التي يعرفها كل شخص في الحياة اليومية"⁸ كما يضيف قائلاً بأنه - عالم المعيش - "هو العالم المعطى دائماً مسبقاً، الذي له دائماً ومسبقاً صلاحية كونه كائناً"⁹ فالفرد أو الجماعة بعملها متواجدة ضمن العالم لأنه للجميع، ولتشكيل ما يعرف بالانتماء إلى هذا العالم والتي تنطلق أساساً من "الحياة المشتركة كونها حياة للوعي"¹⁰ فالفينومينولوجيا هنا تسعى لاستخراج المعاني من الحياة اليومية دون نقص أو زيادة وهذا ما جاء على لسان جان فرنسوا ليوتار على أنها "دراسة الظواهر المتجلية، لأول وهلة، أمام الوعي، والمقدمة كما هي قصد تحليلها وتتبع خصائصها، من خلال ما يعرف بقاعدة التوجه نحو الأشياء نفسها بعيداً عن الأحكام الذاتية أو النظرة المسبقة التي من شأنها أن تحول دون بلوغ حقيقة الأشياء."¹¹ وإذا ما تم اسقاط هذا التعريف على العالم المعيش فأول خطوة هي مبدأ القصدية 'L'intentionnalité' ومن هذا المنطلق تصبح الأشياء هي المقصودة أي الذات تتجه نحو الموضوع لتتقلب فيما بعد مع هيدغر بحيث الموضوع هو الذي يتجه صوب الذات وهنا ننقل من الفينومينولوجيا الهوسرلية إلى أنطولوجيا هيدغر، ضف إلى القصدية إزاحة كل الأحكام السابقة والتي تعمل على تظليل وتزييف الحقائق، وحتى للفلسفة من انشاء "معرفة شاملة بالعالم والإنسان متحررة اطلاقاً من الأحكام المسبقة"¹² في هذه النقطة نجد رنيه ديكرت الذي كان السياق في ذلك إذ نجده يصرح بقوله "ينبغي لنا، كي نفهم العلوم على قواعد ثابتة، ان نرفض كل آرائنا القديمة، مرة في حياتنا"¹³ ولتبقى الفينومينولوجيا ذات علاقة وعلى صلة بالإنسان دون الانزياح عنه وعن انشغالاته في مختلف السياقات فهي تبحث في شمولية الإنسان بصفة عامة، وعليه يجب على الفلسفة في هذه الموقع "أن تجد المسافة المطلوبة والدقيقة دون نقص ولا زيادة عن اليومي والعادي وأن تتوقف للتأمل"¹⁴ فالتأمل يجعلها تتجاوز نقطتين أساسيتين تتمثل الأولى في جعل الفلسفة تبتعد على ان تصبح كلام فارغ لا يجد صدها في الواقع، أما النقطة الثانية فتتمثل في عدم جعل الفلسفة تتعالى عن الواقع والحياة اليومية وبلغة الفلسفة نفسها حتى لا تصبح ميتافيزيقا. وعالم المعيش عند هوسرل كان له صدى في الفلسفات الأخرى، فنجد على سبيل المثال هابرماس (1927-؟) الذي تحدث هو الآخر عن - العالم المعيش - والذي يتكون أساساً من مجموعة العناصر التالية: إعادة الانتاج الثقافي، التنشئة الاجتماعية، والاندماج الاجتماعي بتمازج هذه العناصر فسوف يكتسب العالم المعيش قوته فبنوية العالم المعيش تستمد من "تماسكها، قوتها ونجاحها من تأدية كل بنية لوظيفتها على

اكمل وجهه.¹⁵ هنا نلاحظ الفرق بين الفلسفتين فهي -فلسفة هابرماس- ليست لإعادة أو اجترار وإنما كنقد وتجديد وهذه هي خاصية التفكير الفلسفي الذي بني على النقد والتحليل من اجل البناء.

ونظرا لما يحمله اليومي من تنوع شديد قد يدخل الفلسفة في مشكل البناء أي الكيفية او الطريقة التي بها يتم دمج الأحداث ضمن الحياة اليومية، لذا يتطلب من الفلسفة أن تعي هذا التنوع من جهة، ومن جهة أخرى أن تحترم اليومي باعتباره ممارسة على حد تعبير التريكي، وهنا تجد الفينومولوجيا المكان الأرحب لتعمل عملها والمتمثل في "البحث عن المعنى"¹⁶ لأن إذا ما نظرنا إلى اليومي بنظرة فنومولوجية فإن الأهم هو الكيفية التي نحدد بها اليومي من خلال تفاعل مختلف الانشغالات الانسانية، هذا الذي يجعل من الحياة اليومية في صيرورة، وبالتالي يبقى التنوع في حد ذاته أهم مبدا لفهم الحياة اليومية، من دون التخلي عنه أو محاولة تجاوزه.

وفي موضع آخر وفي علاقة اليومي بالإعلام فالعلاقة بينهما تبدو متوترة هذا الموقف كان نتاجا لما شهده العالم من "ولادة الواقع الفائق بعد موت الواقع الحقيقي، وتفكك الروابط التقليدية بين المفهوم والحقيقة"¹⁷ أي أن دور الإعلام تلاشى في ظل التطور الذي شهدته البشرية خصوصا في المجال التكنولوجي فالإعلام لم يعد يعكس لنا صورة الواقع المعاش، أو نقل الحياة اليومية للإنسان بما فيها من هموم، انشغالات... الخ، بل أصبح همه الوحيد هو أن "يصهرنا فيه إن صح التعبير، أصبح يحشرنا في اليومي ويغرقنا فيه. أصبح يخبرنا إلى حد التخمّة. فعوضا عن أن يجعلنا ندرك الأحداث في بعدها التاريخي ودلالاتها العميقة، صرنا نضيع في جزئياتها، بل إن الأحداث هي التي أصبحت تضيع وتحلل وتفتت."¹⁸

هنا تكون الفلسفة في علاقتها باليومي في مواجهة مع الإعلام لأن الفلسفة تسعى إلى تشكيل الانسان الذي يستطيع التمييز بين الصبح والخطأ، ومحاولة الكشف عن التواصل المزعوم الذي تفرضه وسائل الاعلام من خلال الهيمنة والسيطرة التي تفرضها بغية تظليل الرأي العام، او بالأحرى لفرض ونشر منتجاتها على حساب الآخر بحيث أصبح الإعلام هو الموجه.

فاليومي يقوم على أساس التنوع والاختلاف على حد تعبير التريكي والتنوع بدأ مع السوفس فاليومي وما يحمله جعل منه مكان تأرجح المتناقضات هذا الذي نجده ربما عند نيتشه والذي يعرف ب"القبول الأعلى للحياة"¹⁹ والذي يتمثل في فلسفة هيدغر في ما يعرف بالانفتاح أي انفتاح على العالم، على الآخر، او على الغير في غيرته، أو بالأحرى انفتاح على المعنى.

وعليه جاءت فلسفة اليومي في التقصي عن البنية التكوينية للحياة اليومية والبحث عن الأسس التي بموجبها تصبح الأحداث اليومية أحداث عادية وفي الكشف و"إظهار ما غاب عن الانظار، وعن المفكر فيه بأن نفكر في الآخر من حيث هو آخر، (...). فالتفكير هو تفكير الاختلاف والغيرية، بما انه يضعنا امام كثرة المعاني وتشعب الآثار."²⁰ فالتنوع قد يجعل جانب معيننا من الحياة اليومية في دائرة النسيان، وعليه فإن استرجاع جزء معين يختلف حسب اختلاف التوجهات، لكن العودة الحققة لن تتحقق إلا مع الفيلسوف الحامل لشعار النقد والتحليل والذي يبحث في كليانية اليومي وشموليته، لأن قد تنغاضى في بعض الأحيان عن بعض العناصر في تحليلنا للحياة اليومية لكن مع الفيلسوف قد يكون العنصر البسيط هو العنصر المؤسس لليومي.

فلفلسفة اليومي بما هي مواجهة مع الواقع من جهة ومجازفة مع الفلسفة من جهة أخرى نظرا لطبيعة الفلسفة ونسقيتها وما يحمله اليومي من مقاصد وافكار مختلفة في مختلف السياقات جعلها محل مواجهة مع الإعلام الذي يلعب بدوره خانة مهمة في تشكيل الواقع المعيش من خلال التأثير المباشر على الفرد.

فلفلسفة اليومي تسعى إلى فهم صيرورة الحياة اليومية من خلال البحث عن المعنى المؤسس، وعليه فهي فلسفة الانسان بامتياز لأنها تسعى إلى رد الاعتبار للإنسان الذي فقد قيمه والعمل على احترامه واحترام مبادئه وقيمه التي نعى عليها فالتنوع أساسا هو ميزة الانسان بالدرجة الاولى، والاحترام هو أبسط شيء يمكن الحديث، لكن الواقع يثبت عكس ذلك الامر الذي تشهده معظم مناطق العالم ودليل ذلك انتهاك حقوق الانسان في بعض البلدان كالروهنغا التي تفتقد إلى أبسط معالم الحياة، ضف إلى ذلك الواقع الذي تعيشه البلدان العربية من حرمان وسيطرة قتل تجويع وكل أساليب التعذيب وللحديث بقية.

الهوامش والاحالات:

1_ فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، دار المتوسطة للنشر، تونس، ط1، 2009، ص 59.

2_ المرجع نفسه، ص 60.

- 3_ المرجع نفسه، ص 60.
- 4_ المرجع نفسه، ص 61.
- 5_مارتن هيدغر، الكينونة والزمان، تر: فتحي المسكيني، مراجعة إسماعيل المصدق، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2012، ص 49
- 6_ فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق، ص 68.
- 7_ بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2005، ص 612
- 8_ ادموند هوسرل، أزمة العلوم الأوروبية والفنومينولوجيا الترنسندنتالية، تر: اسماعيل المصدق، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، بيروت، ط1، 2008، ص 448.
- المصدر نفسه، ص 449.9_
- 10_ المصدر نفسه، ص 45
- 11_ عبد الغني بارة، الهيمنيتوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تاويلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ص 197.
- 12_ هوسرل، مصدر سابق، ص 46
- 13_ رنيه ديكارت، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى تثبتت أن الله موجود وان نفس الانسان تتميز من جسمه، تر: كمال الحاج، منشورات عويدات، بيروت باريس، 1988، ص 40.
- فتحي التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق، ص 70.14_
- 15_ جميلة حنيفي، يورغن هابرماس من الحداثة إلى المعقولية التواصلية، إصدارات الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، (د.ب)، (د.ط)، ص 18.
- 16_ المرجع نفسه، ص 72
- 17_ عبد الرزاق بلعقروز، السؤال الفلسفي ومسارات الانفتاح تأولات الفكر العربي للحداثة وما بعد الحداثة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت الجزائر، ط1، 2010، ص 118.
- 18_ عبد السلام بن عبد العالي، الفلسفة واليومي، ضمن: الحياة، العدد 15266، تيارات، 2005، ص 19.
- 19_ التريكي، فلسفة الحياة اليومية، مرجع سابق، ص 73.
- 20_ عبد الوهاب المسيري، فتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر، دمشق، ط1، 2003، ص 302 303